براعم الحب

محمود سعيد

أجال السائق الأفغاني عينيه يفتّش بحيرة عمّن يفكّ له قطعة النقد، فلم يجد في مقهى «النار البيضاء» سواي لكنه تجاهلني لفراسةٍ طبيعية فذّة، أو لأنه وجدني أقرأ في كتابي الهزلي الذي وددتُ أن يبدّد كآبة أفلاسي. فترفّع عن مقاطعتي، وظلّ مشدوهاً بجمال الفتاة الطاغي ذائباً يكاد يتلاشى، بينما كانت الفتاة تستثمر كل طاقاتها بنشوة غرور مراهقة لتسيطر لا عليه فحسب بل على كل العالم ايضاً.

وضحكتْ فازداد اضطرابه وتلاشيه. كان يقف أمامها محتاراً مأزوماً لا يدري ما يفعل، وكانت تنظر إليه بابتسامة عذبة ساخرةٍ رافضةً أن يشركها في مأزق وقع هو فيه؛ فكونه لا يملك صرفاً مشكلة لا علاقة لها بها.

مرة أخرى تنقلت عينا السائق في أرجاء المقهى الخالي هرباً من هيمنة شخصيتها الطاغية القدرية. وضحكتْ فازداد حرجاً، واحمرت وجنتاه، وتغضّن ما حول فمه. خِلتُه سيبكي: أيّ مأزق؟ ماذا ستفعل الدموع بهذه اللحية الأنيقة؟ ونظر اليها من جديد مستعطفاً فموسقتْ:

ـ «غرمت فيني»...!

ولم يفهم الأفغاني كلامها، كما أنها لم تكن تريده أن يفهم. كانت تعيش حالة انتشاء فيّاض، والابتسامة لا تفارق شفتيها. كانت بحدود الثامنة عشرة، طويلة رشيقة على حافة الامتلاء، وكانت ترتدي تنورة طويلة حتى القدمين ذات لون تبنيّ، وقميصاً وافر الأكمام من اللون نفسه تحت صدرية مخمل «مارونية» ذات حاشية ذهبية. وباستثناء الورد المتفجّر من شفتيها المملوءتين كالإعصار، كانت سمرتها الخفيفة طبيعيةً نضرة صافية كماء رقراق. ولولا اندفاع فتاة بالعمر نفسه تقريباً، ولكن أقصر قامة وأشد نحولاً نحوها، لظننتَ أن الأفغاني سيتبخر من فرط حرارة البركان الذي يواجهه.

كانت المراهقةُ الثانية التي نبتت أمامهما قشّة إنقاذ للأفغاني. شخصت عيناه نحو السماء:

ـ الحمد لله.

بينما هتفت القصيرةُ بعصبية تمزّقها فرحةٌ عارمة:

ـ جاءا.

كادت ترقص من الفرحة، وهي تجول بعينيها في أرجاء المقهى الأنيق الخالي الذي تضافر فيه شيئان متشابهان لخلق جوّ شاعريّ: ضوءٌ خافت وموسيقى هادئة. وإذ لم ترى غيرَ مخلوق عاجز عن الأذى يدفن وجهه في كتابٍ قفزتْ مرحاً، تنهدت وهي تتفجّر إثارة:

ـ جاءا.

كانت ترتدي سروالاً من «الجينز» السماوي تحت قميص أبيض ملتصق بالصدر والخصر والكتفين، ينزل على الساعدين بضع إنشاتٍ لا أكثر، فيما يكاد قوسُ الجيد الأمامي ينحسر حتى أعلى الثديين، كاشفاً سفحيهما النافرين.. كبرعمي ورد ناتئين. فالتفتت الطويلةُ بهدوءٍ مغناج نحو الباب الزجاجي العريض الذي انفتح فجأة ليحتلّه مراهقان بالعمر نفسه تقريباً. فتيان أحدهما طويل، والثاني أقصر منه. اتجه الطويل نحو المراهقة الفارعة، صافحها فبدا وكأنه أخوها؛ كان مثلها ممتلئاً ولكن برشاقة، خفيف السمرة، هادئاً، فرحاً، واثقاً من نفسه.. بينما كان زميله أشبه بالمراهقة الثانية: أقصر وأشد بياضاً، وكان يرتدي أيضاً سروالاً أزرق من «الجينز» تحت قميص أبيض نصف رُدن ويشد رباطاً أزرق حريراً مقلماً بالأبيض. وبدا الفتيان كل مع مراهقته أشبه بالأخوين لا بالعاشقين.. أو لعل الأربعة تواطأوا على أن يبدوا كذلك.

وباختفاء الأفغاني فاحت رائحة غرام استحالت موجةَ عطرٍ احتلّت المقهى الخالي.

كان التوقيت مثالياً للتمتع بخلوة العمر، ولا بد أن الإعداد له ما كان ليتم صدفة بل عبر مراقبة دقيقة للروّاد لا يمكن أن ينجح فيها مثلَ كل هذا النجاح إلا مخطّطٌ منظّم أشبه بمخطّطي الجريمة المنظمة. ففي مثل هذه الفترة الدقيقة، بين المغرب والعشاء، يخلو المقهى تماماً ولمدة بين نصف ساعة إلى ساعة تقريباً؛ وبالرغم من أنه لم يكن يُغلَق طيلة النهار، فإنّه يزدحم بين العاشرة صباحاً والثانية بعد منتصف النهار، ثم يكاد يخلو ليشهد بعض الحركة المتقطعة عصراً ثم يعود ليخلو في هذه الفترة إلا من بعض راغبي «الكيك» الجاهز الذي يُتفنّن في طهوهِ تحت إشراف صاحبته الإيرانية الكهلة التي تتحدّى الشيخوخة بالتصنّع والأناقة.

جئت مبكراً مع كتابي الهزلي هذا المساء لعلّي أتغلب على المرارة التي خلّفتها خسارتي، بعد أن تأكدت أنّ التُّمْرَ الذي اشتريته بكل ما أملك وكان قد أبحر به «لنش» محلّيّ يقوده «طاقم» هندي من ميناء «أم قعر» قد وقع بيد الدوريات التي تنفّذ الحصار، وأنهم أعلنوا عن مزايدة لبيعه ليسدّدوا بثمنه خسائر حربٍ كنتُ وأمثالي من أوائل المكتوين بنارها. كدت أفقد وعيي فاستعنت بكتاب هزليّ ومقهىً خالٍ لأقفز فوق الكارثة بنوع من خداع الذات. بيد أنّ فرحة المراهقين أمامي تجاوزت تأثير مفارقة الكتاب. ولكوني الفضولي الوحيد في هذه المسرحية فقد أحسستُ بامتياز أدرج انكساراتي وهزائمي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية.

كان جوّ المقهى مثالياً للعاشقين في هذه الفترة: التلفزيون الضخم يعرض مسلسلاً أميركياً يتكدّس بحسناواتٍ مثيرات ولكن من دون أي صوت، ليفسح المجال لموسيقى شهرزاد كي تنساب من منافذ مخفية

موزعة في أرجاء المقهى بحيث تُسمع في كل مكان بالدرجة نفسها. ولم تكن الإيرانية بقادرة على خدش جناح فراشة؛ حتى غدوّها ورواحها المتواتران ما كانا يثيران غير مراقبة الأعمال التي أغنتها عن مراقبة الروّاد. أما النادلة الفليبينية ذات السمرة الفاتنة فما كانت تهتم بشيء غير رضى سيدتها التي تبادلها بين الحين والآخر نظرة حبٍ حميمة تتجاوز علاقات العمل؛ فكانت تسير الهوينى على بساطٍ من بيض. وأما أنا فلم أكن في نظرهم غير قارئ كتاب لا يحلّ ولا يربط. لذا فقط انصبّ تركيز المراهق القصير على مراقبة العاذلين المحتملين خارج المقهى؛ فمنذ أن دَخَلَ باشر بتفحّص المكان زاويةً زاوية، ومن ثم اختار منضدةً لا يمكن أن يرى من يجلس حولها أحدٌ من الخارج. وجلست الفتاة الطويلة وظهرها الى واجهة المقهى يلاصقها صاحبها الأسمر الطويل، بينما جلست القصيرة وظهرُها الى الممر الرئيسي في المقهى، بحيث لا يستطيع أن يرى متسوّقو «الكيك» أياً من الاثنتين إلاّ بحركة متعمّدة.

كانوا يجلسون متحفزين للكلام، للملامسة، للذوبان، تحتدم نفوسهم بصراعات لم يخفها اضطرابُ حركاتِ أيديهم، أو انكساراتُ نظراتهم وتوهّجاتها. ولا بد أنهم أحسّوا بوطأة تجربة كبرى يمارسونها لأول مرة، فأرادوا أن يجتازوها بسلام وعلى أفضل وجه. بيد أنهم أعوزتهم التجربة، فظلوا صامتين برهة لا يعرفون ما يفعلون، ينتظرون أن يقوم أحدهم بمبادرة تفتح الباب للآخرين. ولعل انتفاض المراهق القصير حينما رأى شاباً يمرّ قرب الشباك في الشارع وينظر نحوهم قد كان رد فعل عفويّاً على ما يشعر به الجميع من توتّر. كنت أقرب الناس الى الشباك، بيني وبين الشارع ستارةٌ بارتفاع قدم من أوراق الظل والزهور، يعلوها زجاج واسع يعطي الانطباع بأن الجالس هو على الرصيف لا في الداخل، وكانت هناك ستارة من مشبك قطني مفتوح على الجانبين لا يمنع الرؤية بل يكمل «الديكور».

أصبح المراهق فجأة بالقرب مني، فتبدّت آنذاك أناقته: الرباط الحريري، والقميص المكويّ بعناية، وشعر كستنائي خفيف، وعينان كبيرتان نافذتان، وبشرة صافية. ومن دون أن يستأذنني أغلق الستارة فلم أعد أرى من الشارع سوى نصفه البعيد، في الوقت الذي أحكم فيه بحركته تلك التستّرَ وستر جلسة العشق الجماعي من المستطرقين في الشارع. فرجعتْ عيناي من جديد إلى قلب الجلسة الجماعية العق متطفلاً عَسَلَ غرام يفيض من أعين عشاق أبرياء ومساماتهم وتقاطيعهم، لا ينبسون بأي نأمة، يطفو هدوء عميق فوق رؤوسهم، هدوء سطحي يغلف قلوباً ممتلئة ناراً وضراماً. كانوا جامدين في الظاهر لكنهم يحتدمون حركة في الداخل، ولم تكن عندهم من وسيلة للتلاحم إلا الأعين، إلا النظرات مسكونةً بالدفء والعذوبة والرغبة.

لم يتحرك المراهق الطويل إلا حركةً واحدة فقط: وضع كفه فوق كف صاحبته، وكانت هذه قد تركت ساعدها الأيسر يمتد على المنضدة فأتاحات له فرصةَ عناق أصابعها، كمن يمسك عصفوراً ساكناً براحته. أغمض المراهقُ عينيه ليتشرّب اللّذة، لذّةَ توحُّد جسديْن بنار خلاّقة محرقة، وكانت مثله قد أغمضت عينيها أيضاً لتبارك ذلك التوحّد المرغوب، وبلهفة عذراء عطشى... في

حلم

ثائر زكي الزعزوع

جميع خلاياه كانت مركزة على الشجرة. دورانُ جسده توقف، وجهُهُ شَحُبَ حتى صار لونه مثل لون ليمونة، ونبض قلبه ارتبك. كان جسده الهزيل يرتبك بشكل ملحوظ. أحسّ، للحظة، بأنّ العالم قد تغير وأنّ هذه المسافة التي تفصله عن الشجرة هي المسافة نفسها التي تبعده عن وعيه بالأشياء. حرّك قدميْه بصعوبة وحاول أن يخطو، لكنه ظلّ ثابتاً في موضعه، كأنّ الطين يمزج خلايا جسده بالأرض. صار قطعةً واحدة مع الطين، وأحسّ بأن قدميه تتحولان بشكل سريع الى طين لزج لا يلبث أن يتجمد. لوّح بيديه وصرخ بشدة، لكنّ صوته لم يخرج من جوفه. جال ببصره على الأشياء المحيطة به كأنه يريد وداعها.

شيئاً فشيئاً، راح يتحوّل إلى كتلة منتصبة من الطين. لم يبق منه سوى رأسه يمارس تلك العلاقة الحميمة في الهواء، كأنه كان يقاوم هذا التطيّن الغريبَ من خلال علاقته بالهواء. صار يتنفس بشدة. ما عاد ينبض فيه شيء سوى عينيه ورأسه. فجأة سمع انفجاراً شديداً، فتح عينيه فرأى وجهَ زوجته باسماً أمامه. حاول أن ينهض من سريره، لكنه لم يستطع. كان جسده متصلباً، وقدماه لا ينبض فيهما الدم. صرخ في وجه زوجته:

ـ أنا مشلول، لا أستطيع أن أتحرك.

هزت زوجته رأسها بحزن وقبّلتْ جبينَه، ثم قالت وهي تفتح نافذةَ الغرفة المطلة على الشارع:

ـ منذ عشر سنوات وأنت مشلول، فما الجديد في الأمر؟

حين كان القصير ينتفض من الإثارة وساعده العاري يلامس ساعد مراهقته، وكان بين الحين والآخر يحسّ بحاجة الى تلاحم أشد فيضع ساعده كله فوق ساعد ملاصقته ويغمض عينيه برهةً ثم يفتحهما ليعود متحفزاً ويراقب الطريق والمقهى و«كاونتر» المعروضات الشهية، فاذا اطمأن عاد الى التفاف الساعد بالساعد.

لكن النادلة الفليبينية اقتحمت هي و«الكيك» و«الكابوتشينو» العالم السحري للأربعة، فاعتدلوا جميعاً، وابتعدت السواعدُ والأصابع، وأخذوا يراقبون حركاتها البطيئة وهي تُنزل طلباتهم قطعةً قطعة، مشيعةً بتصرفها الرتيب هذا موجة العشق العارم. عندئذ وجد اللسانُ فرصته، فتمتم القصير كلماتٍ فجّرت الضحك والقهقهة، فعادت المراهقة الطويلة إلى غنجها اللذيذ فابتسمتْ وضحكت ونكتت. وبدا أن هناك بحراً من مخزون الكلمات سينطلق من قمقمه ليضفي متعة تبادل أحاديث لا تنتهي.

لكن الهدوء ساد مرة أخرى بولوج ثلاثة شبان متقاربي الأعمار، وهم يضحكون ويصخبون بصوت عال. ولعلّهم ظنوا المقهى خالياً فانطلقوا متحررين من القيود. كان في يد كل واحد منهم هاتف متنقل. وإذ توقفوا قرب منضدة المعروضات الزجاجية اختاروا كميةً كبيرةً بدت وكأنها لدعوة أو وليمة، وأشار أحدهم الى صينية «كيك» مغطّاة بالقشدة البيضاء وعرض على صاحبه أن يشتريا اثنتين يرمي أحدُهما بإحداهما وجه الآخر، ونادوا النادلة الفليبينية وسألوها عن أسعار الصينيتين. وبالصوت العالي نفسه، استفسروا عن كل شيء، حتى إذ انتهوا من طلباتهم التفتوا مصادفةً، ففوجئوا بالعاشقين فصمتوا تماماً. ولا بد أنهم ذهلوا لقداسة الجلسة وخصوصيتها حيث تتلاحم البراءة فيها بالرغبة، فاختفت أصواتهم، وتوجهوا بهدوء نحو منضدة قريبة بانتظار الانتهاء من طلباتهم. لكن حركتهم تلك باتجاه مركز العشق جمّدت حركةَ العشاق، فانحسرت نظرات الأربعة عن وجوه بعضهم البعض، واكتفى الطويل بملعقة واحدة من رغوة القشدة الحليبية الممزوجة بالقهوة والسكر، ثم نظر الى صاحبه نظرةً ذات مغزى. فنهض الأربعة إثرها يسبقهم القصير بسرعة البرق نحو الشارع.

أوقف المراهق القصير سيارة أجرة، ثم تبعته الفتاتان بتثاقل وقد غامت الدنيا في تقاطيعهما، وهما تجرّان أرجلهما ببطء فكأنهما تسيران إلى اللحد. وإذ جلستا في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة، انحنى الشابان نحوهما حتى كادا يسدّان باب السياراة المفتوح بجسديهما وهما يودّعان الفتاتين ويصافحانهما، فابتسمتا على مضض. لكن القصيرة لم تحتمل؛ فقد تشنّجت بينما تكلم الثلاثة في وقتٍ واحد، وأخذوا يؤشرون بأيديهم. ولما كنت في المقهى وكانوا في الشارع فإنني لم أستطع سماع شيء ممّا قالوه، وخيّل إليّ أنهم قضوا بضع دقائق على تلك الحال، أغلق الشابان بعدها باب السيارة فيماطفقت القصيرة تمسح عينيها وهي تنتفض، ثم أخذت مع صاحبتها تؤشران من زجاج السيارة الخلفي، وتلوّحان بكفيهما حتى اختفتا، والشابان ينظران بجمود وخيبة الى الجهة نفسها وكأنهما تمثالان لا يتحركان.

بغداد
١٩٨٦

يوسف

محمد اليحياني

نفحني خمسين ريالاً دفعةً واحدةً، ورقة واحدة من فئة الخمسين، سلّمها قُدّامَ عينيّ في رزمة أوراق من الفئة ذاتها... ودسها في جيب دشداشتي وربّتَ على كتفي وشدني إليه بمحبة. لم يكن بمكنتي في اللحظة تلك تحديد شعوره نحوي. ساعتها أحسست رطوبة كثيفة تجتاحني... وكنت أشعر بالتعب والدوار كمن قطع المحيط سباحة.

كنا نقطع بخطوات واهنة الليوانَ العريضَ الذي تزيّنه روزانٌ فُصّتْ في البناء على أشكال مثلثة، وثمة بنادق قديمة مسمّرة على الجدران بتقاطع، وصُوَرٌ لجمال وأحصنة وصُوَرٌ وجوه حية تعود إلى أزمنة بعيدة أو هكذا صُوِّرتْ لي في تلك اللحظة الشديدة الشحوب. وكانت في الزوايا طَنافس مصفوفة بعناية فائقة.

ـ «لا تتردد مطلقاً. تعال في أي وقت. أريدك دائماً. ليس دائماً بهذا المعنى؛ فأنا لي مشاغلي أيضاً. أنت تعرف. ولكنك تستطيع أن تأتي في أوقات مختلفة. وفيما يخص الشغل فسوف أحاول. أنا أبغاك ولكن في حدود، وكما اتفقنا منذ الأول. صداقتنا تبقى بيني وبينك. على كل حال اتّصل أولاً».

كان قد سجّل على رفّ السرير في ورقة صغيرة أرقامه (تلفون البيت ورقم المزرعة وتلفون السيارة) ولعله نسي رقم المكتب.

عند البوابة الخارجية صافحتُ الرجل مبدياً بخجل رغبتي في العودة، بينما كنت قد وطّنْتُ العزمَ على أن لا أريه وجهي ثانية.

في الصباح الباكر استيقظ يوسف. لا بد أن ينأى بجسده مبكراً قبل أن تدوسه اقدام المصلّين. جلس على المصطبة الرخامية، وبلّى رأسه تحت حنفية الوضوء ونفضه مثل عصفور بلّه المطر، وارتدى دشداشته وأقعى «الكمة» على رأسه بميل خفيف إلى الأمام وتحسّس المكافأة في جيب دشداشته وطفق يفتش عن عمل. وكان يحاذر أن يلتقي أيّاً من الرجال الكبار.